الدرس السابـع/ الاتجــاه التاريخـــي:

يعدّ الاتجاه التاريخي أول الاتجاهات النقدية في العصر الحديث، وذلك لأنّه يرتبط بالتطور الإنساني وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وهذا التطور الذي تمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التاريخي، وهذا الوعي هو الذي السمة الأساسية الفارقة بين العصر الحديث والعصور القديمة، وقد ترتب على ذلك شيء بالغ الأهمية، وهو تمثل الإنتاج الأدبي في جملته باعتباره عاكسًا لحركة الحياة والمجتمع وتطوراته، وممثلا على وجه الخصوص للطاقة الثورية فيها ولإرادة التغيير... ويعتبر(النقد التاريخي) الصرح الذي واجه أعتى المناهج النقدية الحديثة المتلاحقة، وهو منهج يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ومجموعة الآراء التي قيلت في أدب ما أو في فن من الفنون، فهو إذن<< يفيد في تفسير تشكل خصائص اتجاه أدبي ما ويُعِين على فهم البواعث والمؤثرات في نشأة الظواهر والتيارات الأدبية المرتبطة بالمجتمع انطلاقًا من قاعدة (الإنسان بن بيئته). ويتكئ"النقد التاريخي" على ما يشبه سلسلة من المحاولات السببية: (فالنص ثمرة صاحبه)، و(الأديب صورة لثقافته)، و(الثقافة إفراز للبيئة)، و(البيئة جزء من التاريخ)، إذن فالنقد تأريخ للأديب من خلال بيئته، وعلى هذا فهو مفيد في دراسة تطور الأدب، لكن لا في الكشف عن نتائج هذه الدراسة، بتعبير آخر هو تمهيد للنقد الأدبي.

وفي (بداية القرن العشرين) تبلور النقد التاريخي في الأوساط العلمية والأكاديمية لدى مجموعة من النقاد الكبار أصحاب الدعوات في ربط الأدب بالحياة، وتأصيل طرائق التحليل النقدي لهذا الأدب، بالإفادة من المعطيات التاريخية ومن العلوم المختلفة، وهذا ما أدى إلى ظهور طوائف من النقاد:

أولا/ التيــار العلمــي: وبدأت ملامحه تتضح مع ظهور الناقد الكبير(**سانت باف** 1804-1869) الناقد الفرنسي الذي ركز على شخصية الأديب تركيزا مطلقًا، إيمانًا منه أنّ النص **(تعبير عن مزاج فردي)**، لذلك كان ولوعًا بالتقصي لحياة الكاتب العائلية والشخصية ومعرفة أصدقائه وأعدائه ... وكل ما يصب فيما كان يسميه **(وعاء الكاتب)** الذي هو أساس مسبق لفهم ونقد ما يكتبه، فكان نقده مقدمة علمية للنقد العلمي الذي تبلور أكثر عن **(هيبوليت تين)** في القرن التاسع عشر، حيث ربط الأدب بالعوامل الثلاث الأساسية المكونة له ضمن نظريته الشهيرة : (الجنس ـ البيئة ـ الزمان).

* **الجنس:** يقصد به العنصر أو السلالة المتمثلة في مجموعة الصفات التي يرثها الشخص من أمته.

* **البيئــة** (المكان): فتعني عنده مجموعة الخصائص والمميزات الإقليمية التي يحيا فيظلها الأديب.

* **الزمــان** (العصر): ممثلا في واقع التيارات السياسية التي تسود مجتمع ما في حقبة زمنية ما، والظروف الاقتصادية المرافقة لها، والعلاقات الاجتماعية والعوامل الثقافية والدينية التي يحيا الأديب في ظلها وينشئ أدبه (عصر الأديب). وتعدّ هذه النظرية خطوة كبيرة في دراسة الأدب بربطه الظاهرة الأدبية بالمجتمع، إذ جعلها تصدر

وتعبر عنه، فالعناصر الثلاث(الجنس. البيئة . الزمان) هي مكونات المجتمع الأساسية، وهكذا عدّ الأدب تعبيرا عن المجتمع في التراث النقدي.

ثانيا/ التيار التأثري: الذي يرى أن النص الأدبي خلق وإبداع للمتعة والإمتاع والتلذذ بمعانيه وصوره الجميلة التي يعبر المبدع عن رؤاه وخيالاته وتصوراته ، ومن ثم لا يحق للناقد أن يعبث بالنص ويُفتِّته على أفكار وجمل لتصنيفه والحكم

عليه، فليس من أحد الحكم على أفكار شخص آخر وعواطفه، فالناس أحرار في عواطفهم وإحساساتهم وميولاتهم ورغباتهم. ولذا رفضت التأثرية الحكم على الأثر الأدبي واعتبرته تعديًا على (المبدع أولا والقارئ ثانيا). وكان الناقد **لوماتر** أكبر مدافع عن التأثرية وزعيمها الأكبر.

ثالثا/ اللانسونيـــة: (GUSTAVE LONSON):

في هذا الجو العلمي المشبع بالفلسفة الوضعية والصراع العنيف بين النقد العلمي والنقد التأثري، بدأ اسم (**غوستاف لانسون** 1875-1934) يتردد في الأوساط الجامعية منذ كتابه الشهير" تاريخ الأدب الفرنسي سنة 1894"، مقترنًا بالثورة على النقديين العلمي والتأثري معًا. فأعلن عن هويته المنهجية في محاضرة بجامعة "بروكسل" حول (الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب)، أعلن فيها << دراستنا تاريخية ومنهجنا سيكون إذن منهج التاريخ>>. ثم نشر في العاشر من أكتوبر 1910بمجلة الشهر(REVUE DU MOIS) مقالته الشهيرة "منهج تاريخ الأدب" محددا فيها أسس وخطوات المنهج التاريخي في دراسة الأدب. وتتكون" اللانسونية" من جملة أسس نظرية وعلمية، لا بدّ أن يأخذ بها الباحث الناقد، وهي:

1- الأخذ بالروح العلمية: وتتمثل في البعد من تلك المحاولات العديدة لاقتباس مناهج علمية خاصة بعلوم معينة وتطبيقها في دراسة الأدب أو التأريخ له. إذن فالروح العلمية كما يفهمها " لانسون" مجموع صفات على الباحث أن يتحلى بها مع مادة بحثه، ومن ثم على دارس الأدب و مؤ رخه أن يتقيد بها في دراسته، منها:

أ- الموضوعية في التعامل مع مادة البحث من خلال طرح كل الأفكار المسبقة والأهواء والنّزعات الشخصية والصدوح بالحقيقة مهما كانت طبيعتها.

ب- النزوع إلى استطلاع المعرفة والرغبة في الاستزادة العلمية، فالمعرفة عادة ما تكون صعبة المنال، وكلما تقدم فيها الإنسان خطوة اكتشف أنه يجهل الكثير.

ج- الصبر الدؤوب: وذلك هو الضمان الوحيد لتجاوز الصعاب والعراقيل التي تعترض سبيل الباحث خلال سعيه وراء الحقيقة، إذ عادة ما ترتبط قيمة البحث بصعوبته.

د- الاستعصاء على التصديق: لأنّ العديد من الباحثين يخطئون كثيرا بتصديق نتائجهم الأولية بسهولة تقديرا لجهودهم، فتأتي نتائجهم النهائية بعيدة عن الحقيقة، ولا ضمان لذلك سوى الاستعصاء على التصديق السريع، اللهم إذا كان الدليل قاطعًا والبرهان ساطعًا.

2- المزج بين الذوق والمعرفة : وهما في الحقيقة أساس" اللانسونية " حيث جمع بينهما " لانسون" بين النقد العلمي والنقد التأثري، مضيفًا إليهما عناصر تقوي الربط بينهما ليكون منهجه بعيدا عن تَزمُّت" العلميين"، وتَسيُّب" التأثريين". فانطلق" لانسون" من مبدأ يتمثل في أن كل حكم أدبي نزيه وكامل يتضمن عاملين: أحدهما **(غير ذاتي)** وهو المعلومة التاريخية والآخر **(ذاتي)** وهو تذوق الأثر حسب ذوق كل واحد.

* فالمعرفة:عنده لا بدّ أن تنبع من طبيعة الأدب نفسه ثم جملة من الخطوات العلمية بتحقيق الأثر الأدبي والحكم عليه.

* الذوق: عند " لانسون" فهو وسيلة يستعين بها الناقد في بناء حكمه النقدي، ولذلك هاجم" لانسون" كثيرا النقد التأثري الذي يرفض الأحكام على أفكار أشخاص آخرين.

** وباختصار إنّ المنهج التاريخي، كما حدده" لانسون" هو خطة عملية لدراسة الأدب والتأريخ له والحكم عليه، ووضعه موضعة الخليق به ضمن نتاج مبدعه أوّلاً، ثم ضمن نتاج عصره ثانيًا، وأخيرا لترتيبه ضمن جنس أدبي من صياغته، وضمن تيار فكري من حيث أفكاره، وضمن عصر معين من حيث ذوقه. كما يستعير مصطلحاته ـ بطبيعة الحال ـ من مجالات التاريخ التي تتحدث عن العصر والبيئة وغيرهما، كما يستعير مصطلحاته من الأحياء عندما يتحدث عن النشأة والتحول والتطور والموت، وقد يستعير بعض مصطلحاته من علم الاجتماع.

****ـ الاتجاه التاريخي في الخطاب النقدي الجزائري:**

فقد ازدهر النقد التاريخي خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين على أيدي النقاد الأكاديميين أمثال: أبو القاسم سعد الله، وصالح خرفي، وعبد الله ركيبي، ومحمد ناصر، وعبد الملك مرتاض، وغيرهم، تحت تأثير رموز النقد التاريخي في المشرق العربي، فقد وجدوا ضالتهم في النصوص الأدبية التي كتبت أثناء الاحتلال الفرنسي، وكانت خصوصياتها تستجيب للإجراءات المنهجية للنقد التاريخي من حيث ارتباطها ارتباطا مرآويًا بالمرحلة التاريخية على العموم، وكان أكبر ما فعلوه أنّهم كابدوا الصعاب وعبدوا الطريق أمام الجيل اللاحق للوصول إلى المادة الأدبية الخام.

نماذج من الدراسات النقدية التاريخية، على سبيل المثال لا الحصر :

*ـ أبو القاسم سعدالله : شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، ط3، الدار العربية للكتاب،الؤسسة الوطنية للكتاب،1984 .

*ـ عبد الله ركيبي : القصة الجزائرية، ط3، الدار العربية للكتاب، الجزائر، تونس،1983 .

*ـ محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية(1925ـ 1975)،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1985 .

*ـ صالح خرفي : الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

و المتتبع لمسار الحركة النقدية حتى الاستقلال لايجد خطابا نقديا جزائريا يستحق العناية بالدراسة قبل 1961 على الرغم من تلك المحاولات المتناثرة هنا وهناك عبر الجرائد والمجلات وخاصة (جريدة المنتقد) و(مجلة الشهاب)لابن باديس، و(جريدة البصائر) لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. لذلك تُعدُّ سنة 1961 تاريخ ميلاد المنهج التاريخي في الممارسة النقدية الجزائرية، من خلال كتاب (شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة) لأبي القاسم سعد الله، بدون منازع.